

الفصل الثامن والثلاثون

الكنيسة والإصلاح

١٥١٧ - ٦٥

١ - المصلحون البروتستنت الإيطاليون

ما كان المرء ليتوقع أن يجد في إيطاليا الوثنية مناخاً ، المشتركة بنية ، المحبذة لإيمان لطيف فنان ، الآهله بالقدسيين الخالدين تنقل صورهم - سواء المرهبة منها والمحجوبة - كل سنة بين الشوارع ، المثرية بفضل الذهب الذي يبعث به إلى الكنيسة العديد من الدول التابعة - نقول إن المرء ما كان ليتوقع أن يجد في بلد كهذا رجلاً ونساء آلوا على أنفسهم أن يغيروا هذا الإيمان الجميل المقدس - ولو لقوا دون هذا حتفهم أحياناً - بعقيدة كابية سندها السياسي هو كره أمم الشمال أن تسمن إيطاليا بعائدات تدينها . ومع ذلك فقد ظهر في كل مكان بايطاليا أناس شعروا بالمفاسد التي حطت من قدر الكنيسة شعوراً أحد وأصدق حتى من شعور الألمان أو السويسريين أو الإنجليز . وكانت الطبقات المتعلمة تطالب في إيطاليا أكثر منها في أي بلد آخر بتحرير العقل من الولاء للأساطير التي سحرت بالماهير وسيطرت عليها حتى ولو كان هذا الولاء ظاهرياً ، هذا مع أن هذه الطبقات المتعلمة كانت تتمتع فعلاً بقسط من حرية التعليم والتفكير . ظهرت بعض كتابات لوثر في أكشاك الكتب بميلانو في عام ١٥١٩ ، وبالبنديقية في عام ١٥٢٠ . واجترأ راهب في كاتدرائية القديس مرقس نفسها (بالبنديقية) على التبشير بتعاليم لوثر . وكتب الكردينال كارافا إلى البابا كلمنت السابع (١٥٣٢) يقول إن الدين هبطت أسهمه

في البندقية ، وإن القليلين جداً من البنادقة يراعون الأصوام أو يجلسون على كرسي الاعتراف ، وإن كتب الهرطقة رائجة هناك . ووصف كلمنت نفسه البدعة اللوثرية بأنها واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين في إيطاليا ، وفي عام ١٥٣٥ زعم المصلحون الدينيون الألمان بأن لهم ثلاثين ألفاً من الأتباع في موطن الكنيسة الكاثوليكية (١) .

كانت أرفع السيدات مقاماً في فرارا بروتستنتية غيوراً . فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثاني عشر الأفكار الجديدة من مارجريت النافارية من جهة ، ومن مرييتها مدام سوبيز من جهة أخرى . وجاءت الأميرة بهذه السيدة معها حين تزوجت (١٥٢٨) من إركولى دستي ، الذي أصبح (١٥٣٤) ثاني دوق بهذا الاسم يحكم فرارا . وزارها كالفن هناك (١٥٣٦) وزاد معتقداتها البروتستنتية قوة وحدة . ووفد عليها كليمان مارو ، ثم أوبر لانجيه الفقيه الهيجونوتي . وتلقاهم إركولى جميعاً بأسلوب النهضة المذهب إلى أن صاح أحدهم خلال عبادة الصليب في يوم السبت المقدس (١٥٣٦) « idolatria » (أي عبادة أوثان !) ، وهنا سمح إركولى لمحكمة التفتيش باستجوابهم . فهرب كالفن ومارو ، أما الباكون فيلوح أنهم نجوا بعد أن أكدوا سلامة عقيدتهم . ولكن رينيه جمعت بعد عام ١٥٤٠ حاشية بروتستنتية جديدة وانقطعت عن حضور الصلوات الكاثوليكية . وهذا إركولى ثائرة البابا بنفيا إلى فيلا الدوق في كونساندولو على نهر بو ، ولكنها أحاطت نفسها هناك أيضاً بالبروتستنت ، ونشأت بناتها على المذهب الإصلاحى الحديد . ولما خشى إركولى أن تصبح بناته البروتستنت يباذق عديمة القيمة في شطرنج الزيجات السياسية نقلهن إلى دير للراهبات . وأخيراً سمح لمحكمة التفتيش بتوجيه الاتهام إلى رينيه وأربعة وعشرين شخصاً من بيتها . فدينت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (١٥٥٤) . وهنا أعلنت إنكارها للهرطقة ، وتناولت القربان المقدس ، وأعيدت إلى حظيرة الدين

والسياسة^(٢) ، ولكن آراءها الحقيقية وجدت تعبيراً صامتاً في تلك العزلة الحزينة الى أنفقت فيها سنى عمرها الأخيرة . وبعد موت إركولى (١٥٥٩) عادت إلى فرنسا ، حيث جعلت من بيتها في مونتارجى ملاذاً يحمى به الهيجونوت .

كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستنتية مثيرة ، وكانت هي أيضاً تحت حكم إركولى . وذلك أن أكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش ، واشتبه في هرطقة بعض رجالها ومنهم جابريلى فاللوبيو تلميذ فيساليوس وخليفته . وكان راهب سابق يدعى باولو ريتشى يندد بالبابوية صراحة في عظاته . وراح الناس يناقشون الأفكار اللوثرية في الحوانيت والميادين والكنائس . وقبض على ريتشى وآخرين . وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الأكاديميين بحجة أنهم موالون للكنيسة وأن من الواجب إطلاق البحث لهم بوصفهم علماء^(٣) . وقنع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على اعتراف بالإيمان ، ولكن إركولى فض الأكاديمية (١٥٤٦) ، وأعدم لوثرى عنيد في فرارا (١٥٥٠) ؛ وفي عام ١٥٦٧ ، حين عنفت الرجعية الكاثوليكية ، أحرق ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة في مودينا .

وفي لوتشا أنشأ بييترو مارتيرى فرمبلى ، رئيس دير الكهنة الأغسطينيين ، أكاديمية رفيعة المستوى ، وجلب لها أفذاذ المعلمين ، وشجع حرية المناقشة ، وقال لجمهوره الكبير من المصلين إن لهم أن ينظروا إلى سر القربان لا على أنه تحول معجز بل تذكر ورع لآلام المسيح ، وكان في هذا لوثرياً أكثر من لوثر . فلما استدعى للمثول بين يدي مجلس رهبنته في جنوة لاستجوابه هرب من إيطاليا ، وندد بأخطاء الكاثوليكية ، ومفاسدها ، وقبل وظيفة أستاذ اللاهوت في أكسفورد (١٥٤٨) . وقد شارك في صياغة كتاب « الصلوات العامة » (١٥٥٢) بقسط مختلف

فيه ، وغادر إنجلترا حين استعادت الكاثوليكية سلطانها فيها ، ومات
أستاذاً للعبرية بزيوريخ عام ١٥٦٢ . وقد حذا ثمانية عشر كاهناً من دير
في لوتشا حذوه ، فهجروا رهبتهم ورحلوا عن إيطاليا .

كان الفضل في توجيه فرميلي وسورانو أسقف برجامو وكثيرين غير
هذين إلى الأفكار الجديدة لرجل يدعى جوان دي فالديس . ولعله هو
وشقيقه ألفونسو ، وهما من أسرة قشتالية عريقة ، ألمع التوائم مواهب
في التاريخ . أما ألفونسو ، تلميذ إرزمس الوفي ، فقد أصبح سكرتيراً
لاتينيا لشارل الخامس ، وكتب *Dialogo de Lactano* (١٥٢٩) ،
وفي هذا الحوار دافع عن «نهب روما» ، وقال إن لوثر ما كان ليترك
الكنيسة قط لو أنها أصلحت المفاصل التي ندد بها عن حق بدلا من أن
تحكم بادانته . وأما جوان فقد شارك في هذا الكتاب ذاته بحوار سماه
Dialogo de Mercurio y caron ، كانت هرطقاته سياسية ، من ذلك
قوله إن من الواجب إلزام الأغنياء بكسب قوتهم ، وإن ثروة
الأمير ملك للشعب ، وينبغي ألا تبدد في حروب أمبريالية أو دينية (١) .
وآثر كلمنت السابع جوان بطبيعة الحال ، فعينه أميناً بالقصر البابوي
حين كان في الثلاثين من عمره . على أن جوان رحل إلى نابولي حيث
انقطع للتأليف والتدريس ، وظل على ولائه للكنيسة ، ولكنه حذب
عقيدة لوثر في التبرير بالإيمان ، ورأى للتصوف المخلص قدراً يسمو فوق
أي طقس خارجي من طقوس العبادة . والتف حوله جماعة ممتازة من
الرجال والنساء وارتضوا زعامته : كفرميلي ، وأوكينو ، والشاعر
ماركانطونيو فلامينيو ، وبييرو كارنيزيكي ، وفيتوريا كولونا ، وكوستانزا
دافالوس دوقة أمالفي ، وإيزابلا مانريكيز أخت رئيس محكمة التفتيش
الأسبانية ، وجوليا جونزاجا التي عرفنا ما كانت تتمتع به من جمال
رائع . وبعد أن مات جوان فالديس (١٥٤١) تفرق تلاميذه في أرجاء

أوربا . وظل بعضهم وفياً للكنيسة كفتوريا كولونا ، وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة . وقطعت رعوس ثلاثة من صغار تلاميذه وأحرقوا في نابلي عام ١٥٦٤ ، وكذلك كانت نهاية كارنيزيكي بروما في عام ١٥٦٧ . أما جولبا جونزاجا فقد أنقذها موت البابا بولس الرابع ، وكان رجلاً قاسياً لا يرحم ، ودخلت ديراً للراهبات (١٥٦٦) وهكذا انتهت جماعة الإصلاح النابولية .

أما برناردينو أوكينو فقد جاز بكل مراحل التطور الديني . عاش في مدينة سيينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين ، حياة تضارع حياتها تقوى وورعاً . وانضم إلى رهبان الفرنسيسكان ولكنه وجد نظامهم أكثر رخاوة مما يلائم مزاجه ، فانتقل إلى رهبنة الكبوشيين الأكثر صرامة . وقد عجب الرهبان من نكرانه النسكي لذاته ، وإذلاله العنيف لجسده ، ولما نصبوه وكيلاً عاماً لهم أحسوا أنهم اختاروا قديساً . وترددت مواعظه في أرجاء إيطاليا - في سيينا ، وفلورنسة ، والبندقية ، ونابلي ، وروما ؛ إذ لم تسمع البلاد نظيرها حرارة أو بلاغة منذ عهد سافونارولا قبل ذلك بقرن . وذهب شارل الخامس لسمعه ، وتأثرت فتوريا كولونا به أعظم التأثير ، أما بيتر أريتينو ، الذي جرب كل الخطايا تقريباً ، فقد حركه الاستماع إليه فأنقلب مفراطاً في تقواه . وضاعت كل الكنائس بسامعيه على رحابها ، ولم يخطر ببال أحد أن هذا الرجل سيموت مهرطقاً .

ولكنه التقى بفالديس في نابلي ، وبفضله ألم بمؤلفات لوثر وكالفن . ووافقت عقيدة التبشير بالإيمان روحه ، فبدأ يلمح لها في عظاته . وفي عام ١٥٤٢ دعي للمثول أمام السفير البابوي في البندقية ومنع من الوعظ . وما لبث البابا بولس الثالث أن دعاه إلى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين . ولعل أوكينو كان يثق بالبابا المستنير ، ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة ، وحذره الكردينال كونتاريني من

الخطر المحدق به . وفجأة قرر قديس إيطاليا ومعبودها هذا ، بعد أن التقى بيتر فرميلي في فلورنسة ، أن يخذو حذوه ويعبر جبال الألب إلى بلد بروتستنتي ، وأعطاه أخ لفتوريا كولونا جواداً ، وفي فرارا أعطته رينيه ثياباً . ومضى مخترقاً إقليم جريزون إلى زيوريخ ومنها إلى جنيف . وقد أبدى استحسانه للنظام البيورتاني الذي كان كالفن يرسي أسسه هناك ، ولما كانت ألمانيتها أقوى من فرنسيته فقد انتقل إلى بازل ثم إلى ستراسبورج ثم إلى أوجزبورج ، محاولاً كسب قوته بلسانه أو قلمه . وفي عام ١٥٤٧ دخل شارل الخامس أوجزبورج سيداً على ألمانيا بعد ان سحق البروتستنت في مولبرج . ونمى إليه أن الراهب الكبوشي الذي سمعه في نابلي يعيش هناك رجلاً متزوجاً ، فأمر القضاة بالقبض عليه ، ولكنهم تستروا على فرار أوكينو ، الذي هرب إلى زيوريخ وبازل . ولما أوشك زاده على النفاد ، تلقى دعوة من رئيس الأساقفة كرامر للذهاب إلى إنجلترا . وهناك عكف على العمل بوصفه كاهناً فخرياً يتقاضى معاش تقاعد في كنتربري است سنوات (١٥٤٧ - ٥٣) ، وقد ألف كتاباً كان له أثر قوى في قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » . ولكنه عجل بالعودة إلى سويسرة حين اعتلت ماري تيودور العرش .

وحصل على وظيفة راع للكنيسة في زيوريخ . ولكن الشعب استاء من آرائه التوحيدية ، وطرد حين نشر حواراً بدا فيه المدافع عن تعدد الزوجات أقوى حجة من نصير الزواج الواحد . ومع أن ذلك كان في شهر ديسمبر (١٥٦٣) ، فقد أمر بمغادرة المدينة خلال ثلاثة أسابيع . ورفضت بازل الإذن له بالإقامة فيها . وسمح له بالملكث فترة وجيزة في نورمبرج ، وما لبث أن خرج بأسرته قاصداً بولنדה . وكانت يومها بالقياس إلى غيرها ملاذاً للمريبين من المفكرين . واشتغل بالوعظ في كركاو زمناً ولكنه طرد حين نفي الملك يجمع الأجانب غير الكاثوليك (١٥٦٤) . وفي الطريق من بولنדה إلى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من أبنائه الأربعة . ولم

يعيش بعدهم سوى شهرين ، ومات في شاكاو في ديسمبر ١٥٦٤ .
وكانت آخر كلماته تقريباً « لست أريد أن أكون بولنجرياً ولا كالفينا
ولا بابوياً ، بل مسيحياً فقط » (٥) . ولم يكن هناك أشد من هذا خطراً .

أما أن تتحول إيطاليا إلى البروتستنتية فكان بالطبع ضرباً من المحال ..
فقد كان عامة الشعب هناك برغم عدائهم للاكايروس متعلقين بالدين
وإن لم يؤموا الكنائس . كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التي قدسها
مرور الزمن ، ويحبون القديسين المعينين أو المعزين ، ويحبون العقيدة التي
ندر تشككهم فيها ، والتي رفعت حياتهم من فقر بيوتهم إلى سمو أعظم
الدرامات التي تصورها عقل الإنسان - وهي افتداء الإنسان الساقط بموت
إلهه . وأعان خضوع إيطاليا السياسي لأسبانيا المغالية في التدين على إبقاء
شبهى الجزيرة كاثوليكيين . وكانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً ومصصلحة
إيطالية راسخة ، وأى إيطالى يرى القضاء على هذه المنظمة الحامية للجزيرة
كان يبدو فى نظر معظم الإيطاليين مشرفاً على الجنون . وقد اختلفت
الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط إيطاليا ،
ولكنها اعتزت بالكاثوليكية عوناً لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والحكومة
الحافظة للسلام ، وأدركت أن عظمة الفن الإيطالى مرتبطة بالكنيسة
بفضل إلهام أساطيرها ومعونة ذهبها . لقد أصبحت الكاثوليكية ذاتها فناً ،
وطغت عناصرها الحسية على عناصرها النسكية واللاهوتية ؛ فالزجاج
المعشق ، والبخور ، والموسيقى ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير ، وحتى
الدراما - هذه كلها كانت فى الكنيسة ومن الكنيسة ، وبدأت فى مجموعها
المعجز جزءاً لا ينفصل عنها . ولم يكن بفنانى إيطاليا وعلمائها حاجة إلى
التحول عن الكاثوليكية ، لأنهم حولوا الكاثوليكية إلى العلم والفن . وكان
المئات بل الألوف من العلماء والفنانين يتمتعون بمعونة الأساقفة والكرادلة
والبابوات ، وارتقى الكثير من الإنسانيين ، وبعض الشكاكين المؤدبين ،

إلى مكانة مرموقة في الكنيسة . وأحبت إيطاليا الجمال القريب المنال
حبا جما لم يسمح لها أن تسلب نفسها في سبيل الحقيقة البعيدة المنال . وهل
وجد الحقيقة هؤلاء التيوتون المتعصبون ، أو ذلك البابا المصغر ، المتجهم ،
الحاكم لحنيف ، أو ذلك الغول القاسي المتربع على عرش إنجلترا ؟ وأي
هراء محزن يتصايح به هؤلاء المصلحون - في الوقت الذي نسيت فيه
الطبقات المثقفة في إيطاليا الجحيم والهلاك كل النسيان ! كان في وسع
المرء أن يفهم الرفض الصامت المستر للاهوت المسيحي إثارة لربوبية
غامضة لطيفة ، أما تغيير سر التحول (تحول الخبز والحمز إلى جسد
المسيح ودمه) ليحل محله هول جبرية محتومة فذلك أشبه بالانتقال من رمزية
مبهجة إلى سخافة انتحارية . وفي هذا الوقت بالذات ، بعد أن بسطت
الكنيسة جناحها الغافرين على نزعات الإيطاليين الوثنية ، كان كالفن
يطلب الدنيا بأن تكبل نفسها بأغلال بيورتانية تهدد بتجريد الحياة من كل
فرح وتلقائية . وأنى للبهجة والفن الإيطاليين أن يدوما إذا كف هؤلاء التيوتون
والإنجليز الهمج عن إرسال نقودهم أو جلبها إلى إيطاليا ؟ .

٢ - المصلحون الكاثوليك الإيطاليون

ونتيجة لهذا كله اتجه الإجماع في إيطاليا إلى ضرورة الإصلاح داخل
الكنيسة . والحق أن رجال الكنيسة المخلصين ظلوا قروناً يسلمون بالحاجة
إلى الإصلاح الكنسي بل ويطالبون به . ولكن تفجر حركة الإصلاح
البروتستنتي وتقدمها أضافا إلحاحاً جديداً على الحاجة والمطالبة « وانصب
على رأس الإكليروس سيل غامر من الشتائم في المئات والألوف من النبذ
والصور الساخرة »^(٦) . ومس « نهب روما » ضمير الكرادلة وجمهير الشعب
المرتاعين كما مس دخولهم . وأعلن عشرات من القساوسة أن هذه الكارثة
نذير من الله . وفي عظة للأسقف ستافيليو أمام الروتا (وهو فرع قضائي

من الإدارة البابوية) عام ١٥٢٨ علل ضرب الله لعاصمة العالم المسيحي بعبارات أشبه ما تكون بلغة البروتستنت فقال «لأن البشر كلهم فسدوا ؛ إننا لسنا مواطني مدينة روما المقدسة ، بل مواطني بابل ، مدينة الفساد» (٧) . وهو ما قاله أوثر :

قبيل عام ١٥١٧ ، في تاريخ غير مؤكد ، أسس جوفاني بييترو كارافا والكونت جاتانو داتيني «مصلى الحب الإلهي» في روما للصلاة وإصلاح الذات . واختلف إلى المصلى خمسون من الرجال النابيين ، منهم إياكوبو سادوليتو ، وجانماتيو جيبرتي ، وجوليانو داتي . وفي عام ١٥٢٤ أسس جاتانو طريقة للاكليريكين النظاميين ، وهم قساوسة علمانيون يخضعون أنفسهم للندور الديرية . وفض المصلى بعد «نهب روما» ، والتحق كارفا وآخرون بالطريقة الجديدة التي اتخذت لها اسماً هو التياتية ، نسبة إلى تياتي أوتشيتي ، مقر أسقفية كارافا . وقبل في الطريقة رجال مرموقون مثل : بييترو بيميو ، وماركانطونيوفلامينيو ، ولويجي بريولي ، وجاسبارو كونتاريني ، وريجنالد بولي . . . وكلهم نذروا أنفسهم للفقير ، والعناية بالمرضى ، وحياة الفضيلة الصارمة ، وكان هدفهم كما قال أول مؤرخ لهم : «تعويض ما في الإكليروس من نقص ، بعد أن أفسدت رجاله الرذيلة والجهل مما أفضى إلى خراب الشعب» (٥) . وانتشر أعضاء الطريقة في شتى أنحاء إيطاليا ، وأسهم المثل الذي ضربوه كما أسهمت الإصلاحات البابوية والمجمعية ، والمثل الذي ضربه الكبوشيون والجزويت ، في إصلاح خلق الإكليروس الكاثوليكي والبابوات . وضرب كارافا المثل بالتخلي عن كل وظائفه الكنسية ذات الموارد ، وتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء . وكان جيبرتي في شخصه وسيرته صورة للإصلاح الكاثوليكي . فهو في بلاط ليو العاشر من أئمة الإنسانيين ، وفي عهد كامنت السابع أمين أول للإدارة البابوية . وإذ هزته كارثة عام ١٥٢٧ ، اعتكف في

أسقفيته بفيرونا ، وعاش عيشة الراهب المتقشف وهو بدير أسقفيته .
وأزعجه انحلال الدين هناك — فالكنائس متهدمة ، والوعظ نادر ،
والقساوسة يجهلون اللاتينية التي يتاون بها القداس ، والشعب لا يجلس إلى
كرسى الاعتراف إلا نادراً . واستطاع بالقدوة الحسنة والمبدأ القويم
وانتظام الحازم أن يصلح أكليروسه . يقول مؤرخ كاثوليكي « وسرعان
ما مائت السجون بالقساوسة ذوى الخليلات » (٩) وأعاد جييرتى إنشاء
أخوة البر *Confraternita della Carita* التي أسسها الكردينال جوليانو
دى مديتشي عام ١٥١٩ ، وبني ملاجئ للأيتام ، وفتح مصارف الشعب
لإنقاذ المقرضين من براثن المرابين . وقام بمثل هذه الإصلاحات الكردينال
إركولى جونزاجا (ابن إيزابلا دسقى) فى مانتوا ، وماركو فيدا فى ألبا ،
وفابيو فيجيلي فى سبوليتو ، وكثير غيرهم من الأساقفة الذين أدركوا أن
على الكنيسة أن تصلح ذاتها أو تموت .

وسلكت الكنيسة فى تاريخ لاحق العديدين من أبطال الإصلاح
الكاثوليكي ، الذين عاونوا على إنقاذها ، فى عداد قديسيها . ومن هؤلاء
القديس فيليب نيرى ، وهو نبيل فلورنسى شاب ، أسس فى روما
(حوالى عام ١٥٤٠) جماعة غريبة تدعى *Trinita de Pellegrini*
ويقضى نظام هذه الجماعة أن يحضر اثنا عشر علمانياً قداس الأحد ،
ثم يحجون إلى إحدى الباسلقات ، أو إلى أحد المروج الريفية ، وهناك
يلقون أو يسمعون أحاديث التقوى والورع ، وينتمون بالموسيقى الدينية .
وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة قساوسة ، وسموا أنفسهم « آباء
المصلى » ، ومن ميولهم الموسيقية أضافت كلمة *oratorio* — التي تعنى
فى الأصل مكان الصلاة — معنى جديداً إلى معناها القديم ، وهو الترنيمة
الكورالية . ومنهم القديس شارل بوروميو — ابن أخى البابا بيوس الرابع — الذى
استقال من وظيفة الكردينال الرفيعة فى روما ليظهر الحياة الدينية فى ميلانو .

فأقر النظام بين رجال الإكليروس بوصفه رئيساً للاساقفة هناك ، وكان لهم في تقشفه وتعبده الأسوة الحسنة . وقد لقي في سبيل الإصلاح بعض المقاومة ، ذلك أن طريقة دينية تدعى « أوميلياتي » ، كانت من قبل تفخر بتواضعها ، انحدرت إلى درك الراحة والدعة بل الاباحية . وأمر الكردينال رهبانها أن يطيعوا قانون رهبنتهم ، فأطلق أحدهم النار عليه وهو يصلي في الكنيسة . وكانت نتيجة هذه الفعلة أن تحولت رهبة الشعب إلى إجلال لهذا الرجل الذي رأى في الإصلاح خير رد على حركة الإصلاح البروتستنتي . وبفضل جهوده إبان حياته وفي أرجاء أبرشيته أصبح الخلق المهذب القاعدة الفاشية بين الإكليروس والعلمانيين على حد سواء . وأحس الناس بتأثيره في جميع أنحاء إيطاليا ، وقد أسهم هذا التأثير في تحويل الكرادلة من نبلاء متعلقين بنعيم الدنيا إلى كهنة أتقياء .

وبدأ البابوات يوجهون اهتمامهم الصادق إلى الإصلاح الكنسي بعد أن حفزهم أمثال هؤلاء . ففي بواكير عهد البابا بولس الثالث قدم له الفقيه الشهير جوفان باتيستا كاتشيا بحثاً في إصلاح الكنيسة قال في ديباجته « أرى أن الكنيسة أمنا المقدسة . . . قد اعترأها من التغير الكبير ما تبدو معه وقد تجردت من سمات طابعها التبشيري ؛ وليس فيها أثر للتواضع وضبط النفس والتعفف والقوة الرسولية » (١٠) . وأظهر البابا بولس ميله بقبوله إهداء الكتاب إليه . وفي ٢٠ نوفمبر ١٥٣٤ عهد إلى الكرادلة بيكولوميني ، وسانسفيرينو ، وتشيزي ، أن يضعوا برنامج تجديد خلق للكنيسة ، وفي ١٥ يناير ١٥٣٥ أمر بتنفيذ مراسم الإصلاح التي أصدرها البابا ليو العاشر عام ١٥١٣ تنفيذاً دقيقاً . على أنه أجل الإصلاح الإيجابي بعد أن وقع في شرك السياسة البابوية والإمبراطورية ، وأحذق به خطر زحف العثمانيين ، وكره وسط هذه الأزمات أن يهز بنيان الإدارة البابوية أو أداءها لوظيفتها بتغييرات جذرية ؛ ولكن الرجال

الذين رفعهم إلى مرتبة الكردينالية كانوا كلهم تقريباً معروفين بالنزاهة والتقوى . وفي يوليو عام ١٥٣٦ قرر عقد مؤتمر إصلاحى فى روما دعا إليه كونتارينى ، وكارافا ، وسادوليتو ، وكورتيزى ، وألياندر ، وبولى ، وتومازو باديا ، وفيديريچو فريچوزى أسقف جوييو ، وكلهم رجال ملتزمون بالإصلاح ، وأمرهم أن يكتبوا تقريراً عن الرذائل الفاشية فى الكنيسة ، والوسائل التى يشيرون بها للتخفيف منها . وافتتح سادوليتو المؤتمر بأن قرر فى جرأة أن البابوات أنفسهم كانوا أهم سبب فى تدهور الكنيسة بخطاياهم وجرائمهم وشرهم للامال (١١) . وظل المؤتمر يجتمع يومياً على مدى ثلاثة شهور . أما روجه الكبير ، وهو جاسبارو كونتارينى ، فكان ألمع رجال الإصلاح الكاثوليكي . ولد فى البندقية (١٤٨٣) من أسرة شريفة ، وتلقى علومه فى بادوا المتحررة ، وما لبث أن تقلد منصباً مرموقاً فى حكومة البندقية . وقد أوفد سفيراً لدى شارل الخامس فى ألمانيا ، وصحبه إلى إنجلتره وأسبانيا ، ثم مثل مجلس الشيوخ فى البلاط البابوى (١٥٢٧ - ٣٠) . واعتزل السياسة وانقطع للدرس ، وجعل من بيته ملتقى لخيرة رجال الدولة والكنيسة والفلاسفة والانسانين فى البندقية . ومع أنه كان علمانياً فإنه كان يطيل التفكير فى الإصلاح الكنسى ، وتعاون تعاوناً نشيطاً مع كارافا . وجيبرتى ، وكورتيزى ، وبولى . وعرفته إيطاليا كلها مزيجاً نادراً من الذكاء والخلق ، وفى عام ١٥٣٥ ، ودون أى التماس منه ، عينه بولس الثالث كردينالا مع أنه لم يلتق به قط (١٢)

وفى مارس ١٥٣٧ قدمت اللجنة للبابا « نصيحة الكرادلة المعينين لإصلاح الكنيسة » ، وقد فضحت هذه النصيحة الاجتماعية ، بحرية مذهلة ، مفاسد الحكم البابوى ، وعزتها بشجاعة أولاً « إلى مغالاة الفقهاء الكنسيين عديمي الضمير فى سلطة البابا مغالاة مستهتره » . ورأى التقرير « أن بعض

البابوات ادعوا الحق في بيع الوظائف الكنسية ، وقد أفشت هذه المتاجرة بالرتب الكهنوتية الرشوة والفساد في الكنيسة على نطاق واسع بحيث أشرفت هذه المنظمة العظمى على الخراب بسبب انعدام الثقة في نزاهتها . وحث التقرير على فرض رقابة صارمة على كل نشاط تقوم به الإدارة البابوية ، وعلى فرض رقابة على الإعفاءات الكنسية ، وعلى وقف دفع المال لنيها ، وعلى مستوى أعلى في جميع الوظائف وفي شروط اختيار الكرادلة والقساوسة ، وحظر الجمع بين عدة وظائف كنسية ذات دخل أو الانتفاع بهذه الوظائف غيابياً . وأضاف التقرير « لقد هجر معظم الرعاة قطعانهم في العالم كله ووكلوها إلى الأجراء » . أما الطرق الديرية فيجب تجديدها ، وأما أديار الراهبات فيجب إخضاعها للرقابة الأسقفية ، لأن زيارة الرهبان لها أفضت إلى الفضائح وتدنيس المقدسات . وأما صكوك الغفران فيجب الإعلان عنها مرة واحدة في العام فقط . واختتم التقرير بهذا النداء الحار للبابا .

« لقد أرضينا ضمائرنا ، ولنا وطيد الأمل في أن نرى كنيسة الله وقد صلحت حالها تحت رياستكم لقد تسميتم باسم بولس ، فلعلكم تحاكونه في محبته . لقد اخترت أداة لحمل اسم المسيح إلى الوثنيين ، وأملنا أن تكونوا قد اخترتم لتحياوا في قلوبنا وأعمالنا ذلك الاسم الذي نسي منذ أمد بعيد بين الوثنيين ومنا نحن الإكليروس ، ولتشفوا علتنا ، وتجمعوا خراف المسيح من جديد في حظيرة واحدة ، ولتصرفوا عنا غضب الله وانتقامه الذي يهددنا » (١٣) .

وتقبل بولس بروح طيبة هذه « النصيحة الذهبية » كما سماها الكثيرون ، وأرسل صورة منها لكل كردينال . أما لوثر فقد ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها تبريراً كاملاً لاختصاصه روما ، على أنه حكم على كاتب الوثيقة بأنهم « كذابون . . . وأوغاد يائسون ، يصلحون الكنيسة بالتملق » (١٤) . وفي

٢٠ أبريل ١٥٣٧ عين بولس أربعة كرادلة - كونتاريني ، و كارافا ، وسيمونيتا ، وجينوتشي - لإصلاح قسم الوثائق ، وهو ذلك القسم من الإدارة البابوية الذي استشرت فيه الرشوة في منح تلك الإعفاءات ، والإنعامات ، والامتيازات ، والترخيصات ، والوظائف ذات الدخل ، المحجوزة لتصرف الساطة البابوية . وكانت المهمة تتطلب الشجاعة ، لأن قسم الوثائق كان يسلم البابا كل سنة ٥٠,٠٠٠ دوكاتية (١,٢٥٠,٠٠٠ دولار) - وهي نصف دخله تقريباً (١٥٠٠) . وللفور تعالت صرخة ألم من موظفي القسم ومن يلوذ بهم ، فشكوا من غلاء المعيشة في روما ، وزعموا أن أسرهم سيحل بها العوز سريعاً لو أنهم أكرهوا على مراعاة حرفية القانون . ومضى بولس في حذر ، ومع ذلك كان « عمل الإصلاح يسير بهمة » كما كتب الباندر إلى موروني (٢٧ أبريل ١٥٤٠) . وفي ١٣ ديسمبر دعا بولس ثمانين من رؤساء الأساقفة والأساقفة المقيمين بروما ، وأمرهم بالعودة إلى كراسيهم . وهنا ارتفعت مشات الاعتراضات مرة أخرى . وحذر موروني البابا من أن العجلة في تنفيذ هذا الأمر قد تحمل بعض الأساقفة على الانضمام إلى اللوثريين إذ يعودون إلى مناطق غلب عليها الآن المذهب البروتستنتي ، وهذا ما حدث فعلاً في عدة حالات . وسرعان ما تاه بولس في بيداء السياسة الإمبراطورية ، وترك الإصلاح لخلفائه من بعده .

وانتصرت الحركة المطالبة بالإصلاح الداخلي حين ارتقى زعيمها كارافا كرسي البابوية (١٥٥٥) باسم بولس الرابع . وصدر الأمر إلى الرهبان الغائبين عن أديارهم دون موافقة رسمية وضرورة واضحة بالعودة إليها فوراً . وفي ليلة ٢٢ أغسطس ١٥٥٨ أمر البابا باغلاق جميع أبواب روما والقبض على جميع الرهبان الآبقين . واتبعت إجراءات مماثلة في جميع الولايات البابوية ، وأرسل بعض المدنيين للعمل في سفن تشغيل الأسرى .

وأبطل الاحتفاظ برياسة الأديار لإعالة الموظفين الغائبين بدخولها . وطلب إلى الأساقفة ورؤساء الأديار الذين لا يخدمون الإدارة البابوية فعلا في وظيفة ثابتة أن يعودوا إلى وظائفهم وألا حرموا من دخلهم . وحظر الانتفاع بالدخول الكنسية المتعددة . وأمرت كل أقسام الإدارة البابوية بخفض رواتبها ، وإبعاد كل شبهة اتجار في التعيين للوظائف الكهنوتية ، وبعد أن خفض البابا بولس موارد على هذا النحو ، بذل تضحية أخرى فوق دفع رسم التثبيت الذي كان يؤديه من يرقون رؤساء أساقفة . وصدرت عدة مراسيم بابوية ضد المرابين ، والممثلين ، والبغايا ؛ أما القوادون فتقرر إعدامهم . وطلب إلى دانييلي دا فولتيرا أن يغطي بطريقة العضلات الحياضية أكثر الملامح التشريحية افتضاحاً في لوحة ميكلانجلو «الدينونة الأخيرة» ؛ ويجب التسليم بأن ذلك المجرر الرهيب ، مجزر الأجساد الهالكة أو المخلصة ، لم يجد له من قبل مكاناً مناسباً فوق مذبح البابوات . واتخذت روما الآن مظهراً من التقوى والفضيلة الخارجية لا يلائم طبيعتها . وأصلحت الكنيسة أكليروسها وأخلاقها في إيطاليا ، ووراء إيطاليا بصورة أقل وضوحاً ، تاركة عقائدها سليمة في كبرياء . لقد تأخر الإصلاح طويلاً ، ولكنه حين أتى كان مخلصاً وبارهاً .

٣ - القديسة تريزا والإصلاح الديرى

وكان التجديد الخلقى يجرى في الوقت ذاته في الطرق الديرية . وفي وسعنا أن نتصور سمعة هذه الطرق من ملحوظة أبدأها ميكلانجلو التقى السليم العميدة ، ذلك أنه حين نعى إليه أن سباستيان ديل بيومبو سيرسم صورة راهب في كنيسة سان بيتر و بمونتوريو نصحه بألا يفعل ، لأنه إذا كان الرهبان قد أفسدوا الدنيا على ما بها من سعة ، فلا غرابة أن يفسد

راهب الكنيسة وهي بهذا الصغر (١٦) . وصمم جريجوريو كورتيزي أن يصلح الرهبنة البندكتية في بادوا في صبر وأناة ، وجيرولامو سيريباندو الكهنة الأوغسطينيين ، وإيجيديو كانيزيو النساك الأوغسطينيين ، وباولو جوستنباي الكامالدولين .

وقامت طرق ديرية جديدة شددت على الإصلاح . فأسس أنطونيو ماريا لاكاريا كهنة القديس بولس النظاميين في ميلانو (١٥٣٣) ، وهم جماعة من القساوسة يندرون حياة الفقر الديرية . وكانوا أول الأمر يلتقون في كنيسة القديس برنابا ، ومن هنا تسميتهم بالبرنابيين . وفي عام ١٥٣٥ وضعت القديسة أنجيلا نظام الراهبات الأورسوليات ليقمن بتعليم الفتيات ورعاية المرضى أو الفقراء ، وفي عام ١٥٤٠ أسس القديس يوحنا الإلهي جماعة « إخوان الرحمة » في غرناطة للخدمة في المستشفيات . وفي عام ١٥٢٣ اعترم ماتيو دي باسي ، مدفوعاً بالرغبة الحارة في الاقتداء بالقديس فرنسيس الأسيسي ، أن يتبع حرفياً نظام الرهبنة الأخير الذي خلفه مؤسس الطريقة الفرنسيسكانية لرهبانها . وانضم إليه غيره من الرهبان ، وما وافى عام ١٥٢٥ حتى شجع تكاثرهم ماتيو على أن يلتمس من البابا اعتماد فرع جديد من الفرنسيسكان ملتزم بأشد قواعد الرهبنة صرامة . واستطاع الرئيس الإقليمي للطريقة أن يستصدر أمراً بإيداعه السجن لعصيانه ، ولكن سرعان ما أطلق سراح ماتيو ، وفي عام ١٥٢٨ ثبت البابا كلمنت السابع طريقة الرهبان الكبوشيين الجديدة . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن رهبانها كانوا يلبسون نوع القلنسوة cappuccio التي لبسها فرنسيس . وكانوا يرتدون أحشن الثياب ، ويعيشون على الخبز والخضر والفاكهة والماء ، ويصومون أصواماً قاسية . ويسكنون قلالاً ضيقة في أكواخ حقيرة ، ولا يسافرون إلا مشاة ، ويمشون حفاة طوال العام . وقد اكتسبوا مكانة مرموقة بفضل رعايتهم المضحية لمرضى وباء

١٥٢٨ - ٢٩ . وكان ورعهم عاملاً في إبقاء فتوريا كولونا ونفر آخر ممن اعتنقوا البروتستنتية حديثاً في حظيرة كنيسة ما زالت قادرة على إنجاب أمثال هؤلاء المسيحيين الغيورين .

أما أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام في عصر الإصلاح الديرى الذى نحن بصدده فرئيسة دير أسباني رقيقة البدن شديدة السيطرة ، هى تريزا دى تشييدا . كانت ابنة فارس قشتالى من آبله ، فخور باستقامته المتطرفة وولائه للكنيسة . وقد درج على أن يقرأ على أسرته جانباً من حياة القديسين (١٧) . أما الأم ، المصابة بعلّة مزمنة ، فكانت تطرد السأم عنها بقراءة روايات الفروسية ، وتشارك من فراش مرضها في مغامرات أماديس الغالى . وتذبذب خيال تريزا في طفولتها بين الحب الشعري والاستشهاد الطاهر المقدس . وحين بلغت العاشرة نذرت على نفسها حياة الرهبنة . ولكنها لم تلبث بعد سنوات أربع أن تفتح صباها عن حسناء تطفر بفرحة الحياة ، وتنسى ثوب الدير أمام الأثواب البهية التى ضاعفت من مفاتها . وتوافد عليها المعجبون ، ووقعت في حب أحدهم على تهبب ووجل ، فدعاها إلى موعد لقاء . وفي اللحظة الحاسمة أحست بالخوف ، واعترفت لوالدها بالمؤامرة الرهيبة . ولما كانت أمها قد ماتت ، فان الدون ألونزو دى تشييدا أودع الفتاة الحساسة ديراً للراهبات الأوغسطينيات في آبله .

وكرهت تريزا حياة الدير ونظامه الكثيبين . ورفضت أن تقسم يمين الرهبنة ، وتطلعت في صبر نافذ إلى عيد ميلادها السادس عشر حين يسمح لها بمغادرة الدير . ولكن ما إن دنا هذا الهدف حتى مرضت مرضاً خطيراً وأشرفت على الموت . ثم تماثلت للشفاء ، ولكن مرح الشباب ولى . ويبدو أن ضرباً من الصرع الهستيرى أصابها ، ربما نتيجة للتمرد المكبوت على قيود غريبة عن غرائزها . وكانت النوبات تعاودها ثم تركها

خائرة القوى . ونقلها أبوها من الدير وأرسلها لتعيش مع أخت لها غير شقيقة في الريف . وفي طريقها أعطاها أحد أعمامها كتاباً من تأليف القديس جيروم . وقد وصفت الرسائل الحية التي احتواها الكتاب أهوال الجحيم ، وصورت مغازلات الجنسين كأنها الطريق المزدهم المفضي إلى الهلاك الأبدي . وقرأت تريزا الرسائل بشغف . وبعد نوبة شديدة أخرى طلقت كل فكرة في السعادة الدنيوية ، وعزمت على الوفاء بنذر طفولتها . فعادت إلى آبله ودخلت دير التجسد الكرملى (١٥٣٤) .

وسعدت حيناً وسط روتين الدير المهديء ، روتين القداديس ، والصلوات والاعترافات المطهرة ، ولما تناولت القربان شعرت بالخبز كأنه المسيح حقاً على لسانها وفي دمها . ولكن نظام الدير الرخو أقلقها . فالراهبات لا يسكن القلالي بل الحجرات المرنيحة ، ويأكلن الطعام الفاخر برغم الأصوام الأسبوعية ، ويتزين بالقلائد والأساور والخواتم ، ويستقبلن الزوار في قاعة الاستقبال ، ويتمتعن بالأجازات الطويلة خارج أسوار الدير . وأحست تريزا أن هذه الظروف لا توفر لها الحماية الكافية من مغريات الجسد وأحلامه . ولعل هذه المغريات والأحلام ، بالإضافة إلى سخطها المتزايد ، جعلت نوباتها أكثر حدوثاً وأشد ألماً . وهنا أرسلها أبوها ثانية إلى أختها ، وأعطاها عمها ثانية كتاباً دينياً اسمه « الأبجدية الثالثة » لفرانسيسكو دي أوزونا . وكان أبجدية في الصلاة الصوفية ، الصلاة دون كلام ، لأن « الذين يدنون من الله في صمت هم وحدهم الذين يمكن أن يسمعهم ويعطيهم جواباً » على حد قول المؤلف (١٨) . وفي عزلتها الريفية مارست تريزا هذه الصلاة الصامتة المتأملة التي الاءمت كل الملازمة ما أحدثته بها النوبات من حالة شبيهة بالوجد .

وحاول طبيب يعالج بالأعشاب أن يداوئها ، ولكن مستحضراته كادت تقتلها . ولما عادت إلى صومعتها في آبله (١٥٣٧) كانت مشرقة

على الموت ، تواقه إليه . ثم أصابتها أشد نوباتها عنفاً ، وراحت في غيبوبة خالها الراهبات غيبوبة الموت ، وظلت يومين باردة لا حراك بها ، تبدو مقطوعة النفس ؛ وحفر الراهبات لها قبراً . ثم أفاقت ، ولكنها ظلت ضعيفة جداً بحيث لم تستطع أن تهضم طعاماً جامداً أو تحتل أية لمسة . ورقدت ثمانية أشهر في مستشفى الدير فيما يقرب من الشلل الكلى . وتحسنت حالها فأصبح شللها جزئياً ، ولكن « الفترات التي لم ترهقني فيها الآلام المبرحة كانت في الحق نادرة (١٩) » . وأقلعت عن كل أنواع العلاج الطبي ، وصممت على أن تعتمد كلية على الصلاة . وظلت ثلاث سنوات تتعذب وتصلى . وفجأة ، في صباح يوم من أيام سنة ١٥٤٠ ، استيقظت العيلة طريخة الفراش ، التي بدت ميئوساً من شفائها ، لتجد أطرافها وقد فارقها الشلل . فقامت ومشيت . ويوماً بعد يوم أخذت تشارك بنصيب أنشط في أعمال الدير . وهلل الناس لشفائها باعتباره معجزة ، وكذلك كان اعتقادها فيه . ولعل الصلاة قد هدأت من نائبة جهاز عصبي أرهقته الرغبات المصطرعة ، والشعور بالإثم ، وخوف الجحيم ؛ ومنحت أعصابها التي هدأت . وبعد الأطباء عنها ، جسدها سلاماً لم تعهده من قبل .

وذاع صيت دير التجسد باعتباره المكان الذي حدث فيه شفاء معجز . وتوافد الناس من المدن المحيطة ليروا الراهبة التي شفاها الله ، وتركوا نقوداً وعطايا للدير المقدس . وشجعت رئيسة الدير هذه الزيارات ، وأمرت تريزا بالظهور أمام الزوار . وأزعج تريزا أن تجد أنها تستشعر لذة في هذه الزيارات ، وفي هذه الشهرة ، وفي وجود رجال وسمى الوجوه . وعادوها شعور بالإثم . وذات يوم (١٥٤٢) بينما كانت تتحدث في قاعة الاستقبال إلى رجل استهواها بصفة خاصة ، خيل إليها أنها ترى المسيح واقفاً إلى جوار الزائر . وراحت في غيبوبة ، واقتضى الأمر حملها إلى قلايتها على نقالة .

وظلت ترى هذه الرؤى طوال الستة عشر عاماً التالية ، وأصبحت عندها أكثر واقعية من الحياة . وفي عام ١٥٥٨ فيما هي غارقة في صلاتها أحست بنفسها تخرج من جسدها وتصعد إلى السماء حيث رأت المسيح وسمعتة . ولم تعد هذه الرؤى ترضيها ، بل على العكس من ذلك تنعشها . كتبت تقول :

« إن النفس التي كثيراً ما ترضيها وترهقها الآلام الرهيبة قبل حالة الوجد تخرج منها ممثلة عافية مقبلة على العمل بشكل يدعو إلى الإعجاب . . . كأن الله شاء أن يشارك الجسد ذاته في سعادة النفس بعد أن أطاع رغباتها . . . والنفس بعد هذه المنحة يملؤها قدر من الشجاعة عظيم إلى حد يجعل الجسد لا يشعر إلا بأوفر راحة لو مزق في تلك اللحظة إرباً في سبيل الله » (٢٠) .

وفي مناسبة أخرى خيل إليها أن « ملاكاً رائع الحسن » قذف « سهماً طويلاً من الذهب » في رأسه نار « محترقاً قلبي عدة مرات ، حتى وصل إلى صميم أحشائي » .

« كان الألم حقيقياً بحيث اضطررتني إلى الأنين بصوت عال ، ومع ذلك كان عذباً إلى حد مدهش لم أتمن معه الخلاص منه . ليس في مباهج الحياة ما يستطيع أن يهب رضى أكثر من هذا . وحين سمع الملاك السهم تركني وقد اضطرت كلي يحب عظيم لله (*) » (٢١) .

هذه الفقرات وأشباهاها مما كتبه القديسة تريزا تقبل بسهولة تفسيرات التحليل النفسى ، ولكن أحداً لا يستطيع التشكك في إخلاص القديسة الشديد . فقد أيقنت كما أيقن اجناتيروس بأنها رأت الله ، وأن أعوص المشكلات كانت تحل لها في هذه الرؤى .

« ذات يوم وأنا أصلى وهب لى أن أدرك في لحظة واحدة كيف أن

(*) يحتفل أتقياء الأسبان بذكرى رؤيا العيون هذه لى عيد مقدس يقع في ٢٧ أغسطس من كل عام .

الله يرى ويحتوى كل الأشياء . . . وهذه من أبرز النعم التي منحني الله إياها . . . فقد جعلني الرب أفهم كيف أن إلهاً واحداً يمكن أن يكون في ثلاثة أقانيم . وجعلني أرى هذا في وضوح شديد بحيث أخذني عجب شديد كما غمرتني سكينه عظمي . . . والآن حين أفكر في الثالوث الأقدس . . . أشعر بسعادة لا ينطق بها « (٢٢) » .

أما الراهبات أخوات تريزا فقد علن روّاهما بأنها ليست سوى أوهام ونوبات مرضية (٢٣) ، وإلى هذا الرأي كان يميل آباء اعترافها ، فقد قالوا لها في جفاء « لقد خدع الشيطان حواسك » . وخال أهل المدينة إن الشياطين مستها ، وطالبوا محكمة التفتيش بفحصها ، واقترحوا أن يطرد قسيس شياطينها بالتعزيم . ونصحتها صديقة بأن تبث للمحكمة بقصة حياتها وروّاهما ، فكتبت سيرتها في كتابها المشهور « Vida » ، ففحصه رجال المحكمة ، وحكموا بأنه وثيقة مقدسة خليقة بأن تشدد إيمان كل من يقرؤها .

فلما أن دعم هذا الحكم مركز تريزا ، صممت - وقد بلغت الآن السابعة والخمسين - أن تصلح طريقة الراهبات الكرمليات . وبدلاً من محاولة إعادة نظام النسك القديم في دير التجسد ، قررت افتتاح دير منفصل دعت إليه من الراهبات وطالبات الرهبنة كل من تقبل عيشة الفقر المطلق . لقد كان الكرمليات القدامى يلبسن الخيش الحشن ، ويمشين حافيات ، ويقتصدن في الطعام ويصمن أصوماً كثيرة . واشترطت تريزا على راهباتها الكرمليات الحافيات نظاماً أقرب ما يكون إلى هذا النظام الصارم ، لا بوصفه غاية في ذاته ، بل رمزاً للتواضع ولنبد هذه الحياة الدنيا بما فيها من مغريات . وقامت في طريقها مئات العقبات ؛ فندد أهل آبله بالخطية لأنها تهدد بقطع كل اتصال بين الراهبات وأقاربهن . ورفض رئيس الطريقة الإقليمي الإذن لها بفتح دير جديد ، فلجأت تريزا إلى البابا بيوس

الخامس ، وظفرت بموافقة . ووجدت أربع راهبات قبل انضمام إليها ، وكرس دير القديس يوسف الحديد في عام ١٥٦٢ في شارع ضيق من شوارع آبله . وكانت راهباته يلبسن صنادل من الجبال ، وينمن على القش ويصمن عن اللحم ، ويلتزم من ديرهن لزوماً دقيقاً .

ولم يرق راهبات الدير الأقدم - وعددهن ١٨٠ - هذا الفصح البسيط لأساليب حياتهن المتهاونة. وأمرت رئيسة الدير تريزا بأن تستأنف ارتداء ثوبها الأبيض السابق ، ولبس حداثها ، وأن تعود إلى دير التجسد ، زاعمة أنها التزمت قبلها بنذر الطاعة . وأطاعت تريزا . ودينت بخطيئة الكبرياء ، وحبست في صومعتها . وقرر مجلس المدينة إغلاق دير القديس يوسف ، وأوفد أربعة رجال أشداء لإجلاء الراهبات اللاتي لم يعد لهن الآن رئيسة . ولكن العذارى لابسات الصنادل قلن « إن الله يريدنا أن نمكث هاهنا ، فنحن إذن ماكثات » . ولم يجروا الموظفين القانونيون القساة على إكراههن على الجلاء . أما تريزا فقد قذفت الرعب في قاب الرئيس الكرملى الإقليمي حين أومأت إلى أنه إنما يسىء إلى الروح القدس بوضعه العراقيل في طريق خططها ؛ فأمر بالإفراج عنها . وغادرت الدير معها أربع راهبات ، وسارت النسوة الخمس إلى دارهن الحديدية وسط الثلوج ؛ وحيا الراهبات الأربع القدامى تريزا « Madre أما » لهن وهن سعيدات ، وأصبحت الآن معروفة في أسبانيا كلها تقريباً باسم تريزا يسوع ، صديقة الله الحميمة .

وكان نظام رهبنتها يتسم بالمحبة والبهجة والحزم . فالبيت موصل في وجه العالم ، لا يسمح للزوار بدخوله ، والنوافذ مكسوة بالقماش ، والأرض المبلطة هي الأسيرة والموائد والمقاعد . وبني في الجدار قرص دائر ، وأنى طعام يضعه الناس على نصفه الخارجي يقبله الدير بشكر ، ولكن ليس للراهبات أن يستجدين . وكن يكمن ما نقص من قوتهن

بالغزل وأشغال الإبرة ، وتوضع منتجاتهن خارج باب الدير ، ولأى مشتر أن يأخذ منها ما شاء ويترك مقابله ما شاء . وأقبات راهبات جديدات على الرغم من هذا التقشف كله ، ومن بينهن امرأة كانت أجمل نساء آيلة وأشدهن فتنة للرجال . ولما زار الرئيس العام للأديار الكرملية هذا الدير الصغير بلغ به التأثير أشده ، فطاب إلى تريزا أن تؤسس بيوتاً مماثلة له في سائر أرجاء أسبانيا . وفي عام ١٥٦٧ استصحبته بضع راهبات ، وسافرن في عربة حقيرة قطعت سبعين ميلاً على طرق رديئة لتؤسس ديراً للراهبات الكرمليات الخفيات في مدينة ديل كاميو . وكان البيت الوحيد الذي عرض عليها بناء مهجوراً متهدماً تداعت جدرانها ورشح سقفه ، ولكن حين رأى أهل المدينة الراهبات يحاولن العيش فيه ، توافد النجارون والمباطون لإصلاح الدار وصنع أثاث بسيط له دون أن يدعوهم لذلك أحد أو يتقاضوا على عملهم أجراً .

وجاء إلى تريزا رئيس دير الرهبان الكرمليين في مدينة طالباً إليها قواعد رهبنتها رغبة منه في إصلاح رهبانه المترخين . وكان الرجل فارح القوام ، ولكن جاء في صحبته شاب قصير هزيل جداً حتى أن تريزا قالت بعد رحيلهما في دعابتهما التي كانت تضيئ الإشراف على نسكها « تبارك الله ، فان عندى الآن راهباً ونصفاً لتأسيس ديرى الجديد (٢٤) » . أما هذا الروهب ، واسمه جوان دى أيبس ألفاريز ، فقد كتب له أن يصبح سان جوان دى لاكروز ، أى القديس يوحنا الصليبي ، روح الرهبان الكرمليين الحفاة وفخرهم .

ولم تأنه مصاعب تريزا . ذلك أن الرئيس الإقليمي للأديار الكرملية عينها رئيسة على دير التجسد ، ربما اختباراً لحكمها وشجاعتها . وكان راهبات هذا الدير يكرهنها ، وقد خشين أن تدينقهن الآن ألوان الذل والهوان انتقاماً منهن . ولكنها عاملتهن بكثير من التواضع والرقه حتى

كسبتهن الواحدة بعد الأخرى ، وما لبث النظام الحديد الأكثر صرامة أن حل شيئاً فشيئاً محل التراخي القديم . ومن هذا الانتصار تقدمت تريزا لإنشاء دير جديد في إشبيلية .

وصمم رهبان الطريقة التي تراخي نظامها على وقف امتداد الإصلاح : فهرب بعضهم عميلة تنكرت في زي راهبة حافية إلى دير إشبيلية . وما لبثت هذه المرأة أن أعلنت على الملأ في أسبانيا أن تريزا تجلد راهباتها وتتلقى للاعترافات كأنها كاهن . وطلب إلى محكمة التفتيش التحقيق معها ثانية . وودعت للمثول أمام المحكمة الرهيبة ، واستمعت المحكمة إلى شهادتها وأصدرت هذا الحكم « لقد برئت من كل التهم . . . فذهبي وواصل عملك (٢٥) » . ولكن أعداءها كسبوا سفيراً بابوياً إلى صفوفهم . فندد بتريزا « امرأة عاصية متمردة ، تنشر التعاليم المؤذية تحت قناع التقوى ، تركت ديرها مخالفة بذلك أوامر رؤسائها ؛ امرأة طماعة ، تعلم اللاهوت كأنها من فقهاء الكنيسة ، محتقرة بذلك القديس بولس الذي منع النساء من أن يعلمن » . ثم أمرها بأن تعتكف حبيسة في دير للراهبات بطليطلة (١٥٧٥) . وحاتت تريزا إلى من تلجأ في هذا التغير الجديد ، فكتبت إلى الملك . وكان فيليب الثاني قد قرأ « حياتها » . وأحب الكتاب . فأرسل مبعوثاً خاصاً من بلاطه يدعوها لمقابلة الملك ، واستمع إليها ، واقتنع بورعها . وسحب السفير البابوي أمره السابق بفرض القيود على تريزا بعد أن وبخه الملك ، وأعلن أنه زود بمعلومات كاذبة .

وفي وسط أسفارها وشدائدها كتبت كتيبات تعبدية صوفية شهيرة مثل « طريق الكمال ١٥٦٧ » و « الحصن الداخلي ١٥٧٧ » . وقد كشفت في هذا الكتيب عن عودة آلامها الجسدية فقالت « ينخيل إلى أن أنهاراً مفعمة بالمياه تتدافع داخل رأسي فوق منحدر سحيق ، ثم أعود فأسمع الطيور في غنائها وصفيرها بعد أن طغى عليها ضجيج المياه . وأنا أرهق ذهني وأزيد صداعى » (٢٦) ، وعاودتها النوبات القلبية ، وكان عسيراً على

معدتها أن تحتفظ بالطعام ، وراحت على الرغم من هذا تنتقل في ألم من دير إلى دير من تلك الأديار الكثيرة التي أسستها ، فاحصة ، مصلحة ، ملهمة . وفي ملقا أصابتها نوبة شلل . ثم شفيت ، ومضت إلى طليطلة ، فنزلت بها نوبة أخرى . ثم شفيت ، ومضت إلى سقوية وبلد الوليد ، وبلنسية ، وبرغش وإلبه ، وهناك اضطرها نرف في رثتها أن تتوقف . واستقبلت الموت ببشاشة ، واثقة أنها إنما ترحل عن عالم من الألم والشر إلى صحبة المسيح الخالدة .

ودفنت في مسقط رأسها بعد منافسة معيبة بين ألبة وآبلة وخطف جسدها المرة بعد المرة . وزعم المصلون الأتقياء أن جسدها لم يفسد قط ، وروى حدوث العجائب الكثيرة عند قبرها . وفي عام ١٥٩٣ تلقت طريقة الراهبات الكرملبات الخافيات اعتماد البابا . واشترك نفر من أشهر الأسبان مثل سرفانتس ولوبي دي فيجا في توجيه نداء إلى البابا يلتمسون فيه على الأقل تطويبها . وهذا ما حدث (١٦١٤) ، وبعد ثماني سنوات تقرر أن تكون تريزا إحدى اثنين من قديسي أسبانيا الحامين ، أما الثاني فهو الرسول يعقوب .

في غضون هذا خرج من أسبانيا من هو أعظم من تريزا ليصلح الكنيسة ويهز الدنيا .

٤ - إجناتيوس لويولا

ولد الدون إينيغو دي أونيز اللويولى في قلعة لويولا باقليم جويبوزكوا ، وهو من أقاليم الباسك ، في عام ١٤٩١ . وكان أحد ثمانية أبناء وخمس بنات للدون بلتران دي أونيز اللويولى ، الذى ينتمى إلى طبقة النبلاء الأسبان العظام . وقد ربي الصبي ليكون جندياً ، لذلك لم يتلق من التعليم المدرسى إلا القليل ، ولم يبد ميلا إلى الدين . واقتصرت قراءاته على قصة « أماديس

الغالى» وأشباهاها من روايات الفروسية . ولما بلغ السابعة أرسل ليكون تابعاً للدون جوان فيلاسكوز دي كويالار ، وبفضله أتيح له بعض الاتصال بالبلاط الملكى . وحين بلغ الرابعة عشرة أحب جرمن دفوا . الملكة الجديدة لفرديناند الكاثوليكي ، ولما حان وقت تقليده رتبة الفروسية اختارها مليكة له ، ولبس شعارها ، وحلم بالفوز يمدليل مخرم من يدها جزاء انتصاره في مبراة للفروسية (٢٧) . على أن هذا لم يمنع من الدخول في الغراميات والمشاجرات العارضة التي كانت نصف حياة الجندي . ولم يحاول إخفاء هذه الأعمال الطائشة الطبيعية في سيرته الذاتية ، البسيطة الأمانة ، التي أملاها في ١٥٥٣ - ٥٦ .

ثم انتهى شبابه الخلى حين عين للخدمة العسكرية العاملة في بانباونة عاصمة نافار . وهناك أنفق أربع سنوات يحلم بالمجد ولا يفتح عينيه إلا على حياة رتيبة . وواتته الفرصة لكي يثبت كفايته ، فقد هاجم الفرنسيون بانبلونة ، وشدت بسالة إينيغو أزر المدافعين ، ولكن العدو استولى على القلعة ، وأصيبت ساق إينيغو اليمنى بكسر من قذيفة مدفع (٢٠ مايو ١٥٢١) . وترفق المنتصرون به ، وجبروا عظامه ، وأرساوه على نقالة إلى حصن أسلافه . ولكن العظام أخطئ جبرها ، فاقتضى الأمر كسرها وجبرها من جديد . ثم تبين أن العملية الثانية أسوأ من سابقتها ، لأن جدعة من العظم برزت من الساق . واستقامت العظام بعد عملية ثالثة ، ولكن الساق أصبحت الآن أقصر مما ينبغي . وظل إينيغو الأسابيع يعاني عذاب جبيرة جعلته ضعيفاً عاجزاً يشكو الماء لا يبرحه .

وخلال أشهر النقاهة الطويلة المملة طاب كتباً ، لا سيما قصة مثيرة عن الفروسية والأميرات اللاتي يهددهن الخطر . ولكن مكتبة القاعة لم يكن بها سوى كتابين لا ثالث لهما : أولهما « حياة المسيح » بقلم اودلفوس ، أما الثاني فيحكى سير القديسين . Flos sanctorum ، وضاق الجندي ذرعاً بالكتابين أول الأمر ، ثم تسلطت عليه صورتا المسيح ومريم ،

وتبين له أن أساطير القديسين لا تقل عجباً عن ملاحم الحب النبيل والحرب ،
ففرسان المسيح هؤلاء هم من كل الوجوه أبطال كفرسان قشتالة . وتكونت
في عمقه شيئاً فشيئاً فكرة مؤداها أن أنبل الحروب هي حرب المسيحية
مع الإسلام . وجعلت جدة الايمان الأسباني الدين عنده ، كما جعلته
عند دومنيك من قبل ، لا تعبداً هادئاً كتعبد الراهب الألماني توماس
أكيبيس ، ولكن رغبة مشبوبة في الصراع ، بل حرباً مقدسة . وصمم
على الذهاب إلى بيت المقدس وتحرير الأماكن المقدسة من سيطرة غير
المسيحيين . وذات ليلة ظهرت له العذراء وابنها في رؤيا ، وبعدها (كما
أخبر الأب جونزاليز فيما بعد) لم يهاجمه قط أى إغراء جنسى^(٢٨١) . ونهض
من فراشه ، وجثا على ركبتيه ، وأقسم أن يكون جندياً للمسيح ومريم
حتى الموت .

وكان قد قرأ أن الكأس المقدسة خبئت مرة في قلعة بمونتسرات في
إقليم برشلونه . هنالك ، كما ورد في أشهر الروايات قاطبة ، قضى أماديس
ليلة بطولها ساهراً أمام صورة العذراء تاهباً للفروسية . وما إن وجد إينيجو
في نفسه القدرة على السفر حتى امتطى بغلا وانطلق إلى ذلك المزار البعيد .
وظل حيناً يرى في نفسه جندياً مرتدياً شكة النزال . ولكن القديسين
الذين قرأ أخبارهم لم يحملوا سلاحاً ولا درعاً ، إنما كانت عدتهم أفقر
الثياب وأرسخ الإيمان . فلما بلغ مونتسرات طهر روحه بالاعتراف
والتكفير ثلاثة أيام ، ثم خلع ثيابه الغالية على شعخاذ ، وارتدى عباءة حاج
من قماش خشن . وقضى طوال ليلة ٢٤ - ٢٥ مارس ١٥٢٢ وحيداً
في كنيسة صغيرة بدير بندكتي ، راکعاً أو واقفاً أمام مذبح العذراء .
وأنخذ على نفسه العهد بحياة العفة والفقير الدائم . وفي صباح الغد تناول
القربان ، وأعطى بغله للرهبان ، ثم انطلق إلى أورشليم وهو يعرج على
قدمه .

كانت أقرب الموانى إليه برشلونه ، وفي طريقه إليها توقف عند قرية مانريزا . ودلته عجوز على مغارة يأوى إليها . فجعلها مسكنه أياماً ، وإذ كان حريضاً على أن ييز القديسين في نسكهم ، فقد مارس هناك من التقشف الصارم ضروراً كادت تقضى عليه . وفي ندمه على ما أسلف من خيلاء بمظهره ، كف عن تنظيف شعره أو قصه أو تمشيطة - فسقط بعد قليل . وأنى أن يقص أظافره أو يستحم أو يغسل يديه أو وجهه أو قدميه (٢٩) ، وعاش على ما وسعه استجدائه من طعام ، إلا أن يكون لحماً ؛ وكان يصوم أياماً بطولها ، ويسوط نفسه ثلاث مرات في اليوم ، وينفق الساعات في الصلاة كل يوم . وأمرت امرأة تقية بنقله إلى بيتها مخافة أن يودي هذا التقشف الصارم بحياته ، وهناك مرضته حتى استعاد عافيته . ولكنه عاود جلد نفسه حين نقل إلى قلالية في دير دومنيكى بمانريزا . لقد أرعبته ذكرى ذنوبه الماضية ، فشن الحرب على جسده باعتباره الأداة لذنوبه ، وصمم على أن ينتزع بالجلد كل فكرة خطيئة من جسده . وبدأ الصراع أحياناً ميئوساً منه ، ففكر في الانتحار . وهنا جاءت الروى التى شدته ، واعتقد وهو يتناول القربان مرة أنه لا يرى قربانة بل المسيح الحى ، وفي مرة أخرى ظهر له المسيح وأمه ، ومرة رأى الثالث ، وفهم - بومضة من بصيرته يقصر دونها اللفظ أو الفكر - سر الأقانيم الثلاثة فى الإله الواحد ، وفى « مرة أخرى » كما يروى « أذن له الله أن يفهم كيف خلق العالم » (٣٠) . وأبرأت هذه الروى الصراع الروحى الذى ابتعثها ، فطرح وراء ظهره كل قلق بسبب حماقات شبابه ، ونخفف من غلواء نسكه ، وإذ قهر جسده فقد استطاع الآن أن يطهره دون غرور . ومن خبرة هذا الصراع الذى امتد قرابة عام وضع « الرياضات الروحانية » التى يمكن أن يخضع فيها الجسد الوثنى للإرادة المسيحية . ورأى أن فى وسعه الآن أن يمثل أمام المزارات المقدسة فى أورشليم .

وأبحر من برشلونة في فبراير ١٥٢٣ . وفي طريقه تخلف أسبوعين في روما ، ثم لاذ بالفرار قبل أن تثنيه روحها الوثنية عن طريق القداسة . وفي ١٤ يوليو استقل سفينة من البندقية إلى يافا . وأصابته خطوب كثيرة قبل أن يبلغ فلسطين ، ولكن رؤاه المتصلة شدت من أزره . وكانت أورشليم نفسها إحدى المحن ، فالترك الذين يسيطرون عليها يسمحون للزوار المسيحيين بدخولها ، ولكنهم يمنعون التبشير فيها ، وحين اقترح إينيجو تحويل المسلمين إلى المسيحية برغم هذا الحظر ، أصدر الرئيس الفرنسيكاني المحلي ، الذي وكل إليه البابا حفظ السلام هناك ، أمراً للقديس بالعودة إلى أوربا . وفي مارس ١٥٢٤ عاد إلى برشلونة .

ولعله أحس الآن أنه وإن كان سيداً على جسده فإنه عبد لأوهامه . فصمم على تهذيب عقله بالتعليم . واشترك مع تلاميذ المدارس في تعلم اللاتينية مع أنه كان في الثالثة والثلاثين . ولكن شهوة التعليم كانت فيه أقوى من إرادة التعلم . وسرعان ما بدأ إجناتيوس - وهو اسمه المدرسي - في تبشير لفيث من النساء التقيات الفاتنات . وندد به عشاقهن مفسداً لمتعتهم وضربوه ضرباً وحشياً . فانتقل إلى القلعة (١٥٢٦) ، وعكف على دراسة الفلسفة واللاهوت . وهنا أيضاً راح يعلم جماعة خاصة صغيرة جلها من فقيرات النساء ، فيهن نفر من البغايا المتعطشات إلى الخلاص . وحاول أن ينتزع منهن ميولهن الحاطئة بالرياضة الروحية ، ولكن بعض تلميذاته أصابتهن نوبات أو غشيات ، فاستدعته محكمة التفتيش للمثول أمامها . وأودع السجن شهرين (٣١) ، ولكنه في النهاية أقنع المفتشين سلامة عقيدته ، فأفرج عنه ، غير أنه منع من التعليم . ومضى إلى سلمنقه (١٥١٧) ، وجاز تجربة مماثلة انتقل فيها من مرحلة التعليم إلى المحاكمة أمام محكمة التفتيش ، إلى السجن ، إلى الإفراج ثم إلى الكف عن التعاليم . فلما خاب ظنه في أسبانيا ، يمم شطر باريس ، دائماً سيراً على الأقدام في رداء الحاج ، سائقاً أمامه الآن حماراً يحمل أسفاراً .

وفي باريس عاش في ملجأ الفقراء ، وكان يستجدي في الشوارع طعامه ونفقة تعليمه . ودخل كلية مونتيجي ، حيث كان بوجهه الشاحب المهزول ، وبدنه الأعرج ، ولحيته المهوشة ، وثيابه العتيقة ، محط الأنظار غير العطوفة ، ولكنه واصل السعي إلى أهدافه في حرص ملك عليه حواسه حتى أن بعض الطلبة بدأوا ينزلونه منزلة القديس . فأسوا بارشاده ألوان الرياضة الروحية من صلاة وتكفير وتأمل . وفي عام ١٥٢٩ انتقل إلى كلية سانت - برب ، وهناك أيضاً التف حوله نفر من التلاميذ . وانتهى مساكنه بطريقتين مختلفتين إلى الإيمان بقداسته . فأما بيير فافر ، الذي كان من قبل راعياً في إقليم السافوا الأليي ، فكان يتعذب عذاباً مبرحاً من مخاوف وهمية أو واقعية ، وتأثيرها نذر حياة العفة الدائمة . وكان ينحني الآن وهو في العشرين تحت طباعه المهذبة روحاً تكافح مغريات الجسد كفافاً محموماً ، ومع أن إجناتيوس لم يدع لنفسه توقد الذكاء . فقد كان يملك القدرة على الإحساس بحياة الآخرين الداخلية بفضل شفافية حياته . وعلى ذلك فقد حدس مشكلة صديقه الشاب ، وأكد له أن نزعات الجسد يمكن السيطرة عليها بالإرادة المدربة . وكيف تدرّب الإرادة ؟ أجاب إجناتيوس ، بالرياضة الروحية . وراحا يمارسان هذه الرياضة معاً . وأما نزيل غرفته الآخر ، واسمه فرانسوا زافير . فكان أصله من بنبلونة حيث مارس لويولا الجندية ، وسليل عدد كبير من الأسلاف النابهين ، وسيا ، غنياً ، فخوراً ، فتي مستهتراً . مرحاً . عليمًا بحانات باريس وبناتها (٣٢) . وسخر الفتى من صاحبيه الزاهدين وراح يباهي بما أصاب من توفيق مع النساء . على أنه كان ذكياً في دراساته (٣٢) . حصل من قبل على درجة الأستاذية ، وهو يحضر الآن للدكتوراة . وذات يوم رأى رجلاً نقر الزهرى وجهه . فأوقفه المنظر ملياً . وبينما كان مرة يفيض في الحديث عما يجيش في صدره من طموح للشهرة والمجد . ذكر له إجناتيوس في هدوء هذه الآية من الإنجيل : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح

العالم كله وخسر نفسه ؟ » ، وساء السؤال زافير ، ولكنه لم يستطع نسيانه . فبدأ ينضم إلى لويولا وفابر في رياضتهما الروحية ، ولعل كبريائه دفعته إلى مباراة زميليه في القدرة على احتمال الحرمان والبرد والألم . وراحوا يجلدون أنفسهم ، ويصومون ، وينامون في قمص رقيقة على أرض حجرية غير مدفأة ، ويقفون حفاة عراة تقريباً على الثلوج ليخشنوا أجسادهم وليخضعوها في الوقت ذاته ، وبلغت التدريبات الروحية التي بدأت في مانريزا شكلاً أكثر تحديداً . وصاغها إجناتيوس في كتيب على غرار « رياضة الحياة الروحية » (١٥٠٠) الذي وضعه الدون جارسيا دي كزنيروس ، رئيس دير مونتسرات البندكتي (٣٣) ، ولكنه سكب في هذا القلب من حرارة العاطفة والخيال ما جعل كتيبه قوة محرّكة في التاريخ الحديث . وكانت نقطة البداية التي انطلق منها لويولا هي عصمة الكتاب المقدس والكنيسة ، فهو يرى أن الحكم الفردي في الدين إنما هو ادعاء باطل مولد للفوضى تدعيه عقول ضعيفة متكبرة . « علينا دائماً أن نكون على استعداد للإيمان بأن ما يبدو لنا أبيض إنما هو أسود إذا عرفته كذلك الكنيسة ذات الكهنوت المسلسل (٣٤) » وعلينا إن أردنا تجنب الهلاك الأبدي أن ندرب ذواتنا على أن نكون خداماً ممثلين لله ، وللكنيسة التي استخلفها الله على الأرض .

أما أول تدريب روحي فهو تذكر خطايانا الكثيرة ، والتفكير في مقدار العقوبة الذي تستحقه . لقد حكم على الشيطان بالجحيم لخطيئة واحدة ، أفليست كل خطية نقارفها تمرداً على الله كتمرد الشيطان ؟ فلنحتفظ بحساب يومي لذنوبنا بعلامات على سطور تمثل الأيام ، ولنحاول كل يوم أن ننقص عدد هذه العلامات . وفيما نحن راكعون في حجرتنا أو صومعتنا بعد إظلامها ، لتخيل الجحيم بأجلى ما نستطيع ؛ يجب أن نستحضر كل فظائع هذه النار التي لا تموت ، يجب أن نتصور عذاب

الهالكين ، ونسمع ضرخات الألم وصيحات اليأس المنبعثة منهم ؛ يجب أن نشم الأبخرة المنتنة التي تتصاعد من الكبريت واللحم المحترقين ؛ يجب أن نحاول الإحساس باللسنة اللهب تلك وهي تلذع أجسادنا ؛ ثم يجب أن نسأل أنفسنا ، كيف السبيل إلى النجاة من هذا العذاب الأبدي ؟ لا سبيل إلا تضحية الفداء التي قدمها الله نفسه في المسيح على الصليب^(*) . فلنتأمل إذن حياة المسيح ، في كل دقائقها ، علينا أن نكون حضوراً بالخيال في تلك الأحداث التي هي أعمق الأحداث في تاريخ العالم . يجب أن نجثو في الخيال أمام الأشخاص المقدسين في تلك الملحمة الإلهية ، وإن نأثم هدب أثوابهم . وبعد أن ننفق أسبوعين في مثل هذه التأملات يجب أن نصحب المسيح في كل خطوة من خطوات آلامه ، في كل مرحلة من مراحل الصليب ؛ نصلي معه في جثسياني ، ونشعر بأننا نجلد معه ، ويصق علينا ، ونسمر على الصليب ، يجب أن نقاسي كل لحظة من لحظات عذابه ، أن نموت معه ، وأن نقبر معه . وفي الأسبوع الرابع يجب أن نتخيل أنفسنا وقد قمنا منتصرين من القبر ، وصعدنا أخيراً معه إلى السماء . وإذا تشددنا هذه الرؤيا المباركة ، فستكون على أهبة الانخراط جنوداً مكرسين في المعركة لهزيمة الشيطان وربح النفوس للمسيح ، وفي تلك الحرب المقدسة سنحتمل باغتياب كل ما نأتي من شدائد وننفق حياتنا في بهجة وفرح .

ووجدت هذه الدعوة للتعبد الممتد طوال الحياة تسعة طلاب في باريس على استعداد لقبولها . ولعل هؤلاء الشبان الجادين ، الذين شعروا لأول مرة بما في العالم من غموض محير ، وتاقت نفوسهم لمرساة من الإيمان والأمل وسط خضم من الشكوك والخاوف - نقول لعلهم دفعوا بثقل المطالب

(*) لاحظ أن لوثر جاز بمثل هذه المخاوف من الجحيم ، وبمثل ضروب انكشف التكفيرية هذه ، وبمثل هذا التحرر بفضل الإيمان بتضحية المسيح الفادية ، الذي كان المعرك الحياة اجنايوس .

الملقاء على كواهلهم إلى المشاركة بمصيرهم وحياتهم وخلصهم في خطة لويولا . فاقترح أن يذهبوا معاً في الوقت المناسب إلى فلسطين ، ويحيوا هناك حياة أقرب ما تكون إلى حياة المسيح . وفي ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع لويولا ، وفافر ، وزافير ، ودييجو لاينيز ، وألونسو ساليرون ، ونيكولا بوباديللا ، وسيمون رودريجيز ، وكاود لوجي ، وجان كودير ، وباشاس برويه - اجتمع هؤلاء العشرة في كنيسة صغيرة بمونمارتر ، وندروا حياة العفة والفقر ، وأخذوا العهد على أنفسهم بالذهاب إلى الأراضي المقدسة والعيش فيها بعد قضاء عامين آخرين في الدرس . ولم يكن لديهم إلى الآن فكرة واضحة عن مكافحة البروتستنتية ، وبدا الإسلام لهم تحدياً أعظم . ولم يكن بهم ميل إلى المجالات اللاهوتية . فهدفهم إنما هو حياة القداسة ، وحركتهم تمد جذورها في تربة الصوفية الأسبانية لا صراعات العصر الفكرية . وخير حجة يقدمونها هي التقى والورع .

وفي شتاء ١٥٣٦ - ٣٧ اخترقوا فرنسا سيراً على الأقدام ، وعبروا الألب ، ثم إيطاليا إلى البندقية حيث كانوا يأملون العثور على سفينة تحملهم إلى يافا . ولكن البندقية كانت تخوض حرباً مع الترك . فاستحال عليهم السفر . وخلال فترة التخلف التقى إجناتيوس بكارافا ، وانضم حيناً إلى التياتين . وكان لخبرته مع هؤلاء القساوسة الأتقياء بعض الأثر في تغيير خطته من العيش في فلسطين إلى خدمة الكنيسة في أوروبا . واتفق هو وتلاميذه على أن يتقدموا للبابا طالبين أداء أي خدمة يكلها إليهم ، إذا انقضت عليهم في هذا الانتظار سنة دون أن يفتح أمامهم الطريق إلى فلسطين . وحصل فافر على إذن لهم جميعاً برسامتهم قساوسة .

كان لويولا قد بلغ إذ ذاك السادسة والأربعين ، أصبغ الرأس به عرج تخفيف لم يفارقه إثر جرحه . وما كان له بقامته التي لم تزد على

خسة أقدام وبوصتين أن يقع من نفوس ناظريه أى موقع لولا رهافة
أرستقراطية فى قسماٲ وجهه ، وتدبب فى أنفه وذقنه ، ولولا ما فى عينيه
من سواد ونفاذ وعمق واكتئاب ، وما فى طلعه من رزانه وعزم ؛
وكان قد غدا القديس المستغرق فى تأملاته ، العازف عن الفكاهة . لم يكن
مضطهداً لخصوم الدين ، ومع أنه وافق على وجود محكمة التفتيش (٣٥) فقد
كان ضحيتها أكثر منه عميلها . كان صارماً فى عطف ، بخدم المرضى
عن طيب خاطر فى المستشفيات وإبان تفشى الطاعون ، حلمه أن يربح
نفوساً إلى الإيمان لا بالنار أو السيف بل بالسيطرة على الخلق فى الشباب
الطبع وتشكيله تشكيلاً ثابتاً فى الإيمان . ولم يكن هذا المؤسس لأنجح
نظم التربية فى التاريخ شديد التأكيد على العلم أو الذكاء . لم يكن لاهوتياً ، ولم
يشترك فى مجادلات الكلاميين أو تدقيقاتهم ؛ وقد آثر الإدراك الحسى المباشر
على الفهم العقلى . ولم ير ضرورة للجدل حول وجود الله ، ومريم
والقديسين ، فقد كان مقتنعاً بأنه رآهم ، وأحس بهم أقرب إليه من أى
شئ أو شخص فى محيطه ، وكان على طريقته رجلاً ثملاً بمعرفة الله
ومحبته . ومع ذلك فإن تجاربه الصوفية لم تجعل منه رجلاً غير عملى . لقد
كان فى وسعه أن يجمع بين مرونة الوسائل وصلابة الغايات ، يأبى تيرير
أى وسيلة لغاية يراها حسنة ، ولكن فى مقدوره أن يترى شيئاً للفرصة .
ويعتدل فى آماله ومطالبه ، ويلازم بين أساليبه والأشخاص والأحوال ،
ويستعمل الدبلوماسية إذا اقتضى الأمر استعمالها ، ويرى الرأى الثاقب
فى الرجال ، ويحسن اختيار مساعديه وعماله ، ويسوس الرجال كأنه
قائد يقود فرقة عسكرية - وهو ما كان يراه فى نفسه فعلاً . وقد أطلق
على فرقته الصغيرة اسماً حربياً « فرقة يسوع » ، ولا عجب ، فهم جنود
تطوعوا مدى الحياة لشاربة الإلحاد وانحلال الكنيسة . أما هم فقد قبلوا
النظام العسكرى للعمل المنسق تحت قيادة مطلقة ، باعتبار هذا القبول
مراً طبيعياً وضرورياً .

وفي خريف ١٥٣٧ خرج لويولا وفاقر ولاينز من البندقية قاصدين روما ليلتمسوا موافقة البابا على خططهم . وقطعوا الطريق كله سيراً ، يستجدون طعامهم ويعيشون أكثر الوقت على الخبز والماء . ولكنهم كانوا يترنمون بالمزامير في سعادة وهم ماضون في رحلتهم ، وكأنهم عليمون بأن فئتهم هذه الصغيرة ستنبثق منها منظمة قوية رائعة .

٥ - اليسوعيون

فلما أن بلغوا روما لم يلبسوا المثول بين يدي البابا من فورهم ، لأن بولس الثالث كان غارقاً في الدبلوماسية الحرجة . لذلك تطوعوا بالخدمة في المستشفى الأسباني . وعنوا بالمرضى ، وعلموا الصغار . وفي مطلع عام ١٥٣٨ استقبلهم بولس ، وأثرت فيه رغبتهم في الذهاب إلى فلسطين والعيش فيها رهباناً مثاليين . وأسهم هو وبعض الكرادلة بمبلغ ٢١٠ كراونا (٥ - ٢٥٠ دولاراً ؟) في نفقات رحلة الفرقة . ولما اضطر النساك إلى التخلي عن الفكرة لاستحالة تنفيذها ردوا المال إلى واهبيه (٣٦) . واستدعى من ظل من الأعضاء في الشمال إلى روما ، فبلغ عدد الجماعة الآن أحد عشر عضواً . وعين البابا بولس فافر ولاينز أستاذين في السابينزا (جامعة روما) . في حين انقطع إجناتيوس والباقون لأعمال البر والتعليم . ونظم لويولا بعثة خاصة الهداية المومسات ، وأسس بتبرعات مؤيديه « بيت مرثا » لاستقبال هؤلاء النسوة ، وقد أثار عداء الكثيرين له في روما بمواقفه الحماسية التي هاجم فيها الخطايا الجنسية .

وأصبح من المرغوب فيه تحديد مبادئ الفرقة وقانونها نظراً إلى انضمام أعضاء جدد إليها . وأضيف نذر الطاعة إلى نذري العفة والفقر ، واشترط طاعة « القائد » الذي يختارونه طاعة ليس فوقها إلا الطاعة للبابا فقط . ثم نذر رابع « بخدمة بابا روما باعتباره خليفة الله على الأرض ، و « بالتنفيذ

الفورى الذى لا تردد فيه ولا اعتذار لكل ما يأمرهم به البابا الحاكم أو خلفاؤه لفائدة النفوس أو لنشر الإيمان « فى أى مكان فى العالم . وفى عام ١٥٣٩ طلب لويولا إلى الكردينال كونتاريني أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد التنظيم هذه ، وأن يلتمس تثبيته للفرقة باعتبارها طريقة دينية جديدة . وكان البابا ميالا إلى الموافقة ، وخالفه بعض الكرادلة لأنهم رأوا فى الجماعة نفراً من الغلاة الذين تستعصى سياستهم ، ولكن بولس تغلب على اعتراضاتهم ، وبمقتضى المرسوم البابوى المسمى « لأجل تنظيم الكنيسة المجاهدة » أنشأ رسمياً ما سماه المرسوم « جماعة يسوع » (٢٧ سبتمبر ١٥٤٠) . وسمى أعضاؤها اسماً مناسباً هو « الاكليريكيون النظاميون فى جماعة يسوع » . ولم يظهر اسم « الجزويت » إلا عام ١٥٤٤ ، وكان آنئذ لفظ هجو قبل كل شيء ، استعمله كالفن وغيره من النقاد (٢٧) ، ولم يستعمله قعد إجناتيوس نفسه . وبعد موته استل نجاح الطريقة الدينية الجديدة من اللفظ حتمه القديمة ، فأصبح فى القرن السادس عشر شارة شرف .

وفى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب إجناتيوس قائداً . وظل عدة أيام بعد انتخابه يغسل الأطباق ويؤدى أحقر الأعمال (٢٨) . وقد جعل مقامه روما فيما بقى من عمره (وكان الآن فى الخمسين) ، وأصبحت المدينة المقر الدائم للجماعة . وبعد طول التفكير والتجربة ، وضع « دساتير » الجماعة بين عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٢ ، وهى بتغييرات طفيفة قانون الجزويت اليوم . وقد نص على أن توضع سلطة الطريقة النهائية فى أيدي الأعضاء « المندورين » ندرأ كاملاً . ويختار هؤلاء مندوبين من كل إقليم ، وهؤلاء المندوبون - هم والرؤساء الإقليميون ، والقائد ، ومعاونوه - يؤلفون « المجمع العام » . وينتخب هذا المجمع قائداً جديداً إذا لزم الأمر ، ثم يفوض إليه سلطته ما لم يقترف ذنباً خطيراً . وقد أعطى « ناصحاً » ، وأربعة مساعدين . يراقبون كل أعماله ، ويحذرونه من أى خطأ جسيم ، ويدعون للمجمع العام لحلعه إذا اقتضى الأمر .

ويتعين على طالبى عضوية الجماعة أن يقضوا فترة اختبار من عامين ،
يدرّبون خلالهما على هدف الجماعة ونظامها ، ويمارسون الرياضة الروحية ،
ويؤدّون الأشغال الحثيرة ، ويخضعون للرؤساء فى « طاعة مقدسة » مطلقة .
وعليهم أن يتخلّوا عن إرادتهم الفردية ، ويرتضوا أن يؤمروا كما يؤمر
الجند ، وينقلوا « كأنهم الجثث » (٣٩) ، وعليهم أن يتعلموا الإحساس بأنهم
بطاعتهم رؤساءهم إنما يطيعون الله . ويجب أن يوافقوا على إبلاغ رؤسائهم
أخطاء زملائهم ، وعلى ألا يستشعروا أى غضاضة فى أن تبلغ أخطاؤهم
لرؤسائهم (٤٠) . لقد كان هذا النظام صارماً ولكن فيه تمييزاً ومرونة ، وقل
أن حطم الإرادة أو قضى على المبادرة . والظاهر أن الاستعداد للطاعة هو
أول خطوة فى تعلم الأمر ، لأن هذا التدريب أخرج العدد الكبير من
الرجال الأكفاء المغامرين .

والذين يطبقون فترة الاختبار القاسية هذه يأخذون على أنفسهم عهداً
« بسيطة » - أى قابلة للسحب - بالفقر والعفة والطاعة ، ويدخلون « الطبقة
الثانية » . وبعض هؤلاء يمتثلون على هذا الوضع إخوة علمانيين ،
وبعضهم « مدرسين مؤهلين » يبتغون القسوسية ، ويدرسون الرياضيات
والآداب القديمة والفلسفة واللاهوت ، ويعلمون فى المدارس والكليات .
أما الذين يجوزون مزيداً من الاختبارات فيدخلون الطبقة الثالثة ، طبقة
« المساعدين المؤهلين » ، وبعض هؤلاء قد يرقون إلى الطبقة الرابعة - طبقة
« المنذورين » - وكلهم قساوسة يتعهدون خصيصاً بالاضطلاع بأى عمل
أو بعثة يكلها إليهم البابا . وكان هؤلاء « المنذورون » عادة قلة صغيرة
- لا تتجاوز أحياناً العشر - بين أعضاء الجماعة كلها (٤١) . وعلى الطبقات
الأربع أن تعيش عيشة مشتركة كالرهبان ، ولكن نظراً إلى واجباتهم
الإدارية والتربوية الكثيرة فقد أعفوا من الالتزام الديرى بتلاوة صلوات
العبادة اليومية السبع ولم يطلب إليهم أى ممارسات نسكية ، وإن جاز

إسداء النصيح لهم إذا اقتضى الأمر . ونص على الاعتدال في الطعام والشراب ، دون صوم متشدد ، ويجب أن يحفظ الجسم والعقل جميعاً صالحين لأداء جميع الأعمال . وللعضو أن يحتفظ بحقه في أى أملاك يمتلكها حين دخوله الطريقة ، ولكن كل دخل يأتيه منها يجب أن يعطى للجماعة ، التى تأمل أن تكون الوريثة النهائية . وكل المقتنيات والأنشطة الجزويتية يجب أن تكرر لمجد أعظم ، مجد الله .

لقد ندر أن حملت مؤسسة ما بصمات شخصية واحدة على هذا النحو القاطع . وامتد أجل لويولا سنين أتاحت له تنقيح دساتيره ليصوغ منها نظام رهبنة يعمل بنجاح . وراح من حجرته العارية الصغيرة يقود بسطان صارم وحقق عظيم حركات جيشه الصغير فى كل أرجاء أوربا وفى كثير من أنحاء العالم الأخرى . وكانت مهمة حكم الجماعة ، وإنشاء وإدارة كليتين وعدة مؤسسات خيرية فى روما ، أثقل من أن يحتملها طبعه كلما تقدم به العمر ، فأصبح غاية فى الحفاء مع أقرب مرءوسيه ، وإن ظل عطوفاً على الضعفاء (١٢) . على أنه كان أقسى ما يكون على نفسه . وكثيراً ما كانت وجباته حفنة من البندق وكسرة من الخبز وكأساً من الماء . وكثيراً ما كانت ساعات نومه لا تزيد على أربعة فى اليوم ، بل إنه اختزل إلى نصف ساعة فى اليوم تلك الفترة التى يخصصها للرؤى والاستنارة السماوية (١٣) . ولما مات (١٥٥٦) شعر الكثير من أهل روما أن ريحاً حادة قد توقفت عن الهبوب ، ولعل بعض أتباعه امتزجت مشاعر الحزن عندهم بأحاساس الراحة . ولم يستطع الناس أن يدركوا بهذه السرعة أن هذا الأسباني الذى لا يقهر سيثبت أنه من أعظم الرجال تأثيراً فى التاريخ الحديث :

كانت الجماعة تضم عند موته لإقراية ألف عضو ، منهم نحو خمسة وثلاثين عضواً « مندوراً » (١٤) . وبعد خلافات أظهرت قدراً كبيراً من إرادة القوة لدى هؤلاء اليسوعيين الذين نالهم الناس محطى الإرادة ، اختيار

دييجو لاينيز قائداً (١٥٥٨) ، وقد اعترض بعض النبلاء الأسباب من كان لهم شيء من النفوذ في الطريقة على اختياره لأن أسلافه منذ أربعة أجيال كانوا يهوداً . وخاف البابا بولس الرابع أن ينهي الأمر بمنصب قائد الحزويت إلى منافسة البابوية ، لأنه يتولاه ندى الحياة . فأمر بمراجعة دساتير الجماعة لتقصر رئاسة القائد على ثلاث سنوات ، ولكن بيوس الرابع ألغى الأمر ، وأصبح القائد «البابا الأسود» (كما لقبته الأجيال التالية نسبة إلى رداء الكاهن الأسود) . وما لبثت الطريقة أن ازدادت حجماً وقوة بعد أن انضم إليها فرانسيس بورجيا ، دوق جانديا ، ووهبها ثروته . ويوم أصبح هذا الرجل قائدها الثالث (١٥٦٥) كانت تضم ٣,٥٠٠ عضو يعيشون في ١٣٠ بيتاً في ثمانية عشر إقليماً أو دولة .

ولم تكن أوربا سوى قطاع صغير في نشاطها . فقد أوفدت مبعوثيها إلى الهند والصين واليابان والدنيا الجديدة . وكانوا في أمريكا الشمالية رواداً مغامرين لا تثنيهم المشبطات ، يحتملون كل الكروب والخطوب على أنها عطية من الله . أما في أمريكا الجنوبية فقد جاهدوا كما لم تجاهد أي جماعة أخرى لتطوير التعليم والزراعة العلمية . وفي عام ١٥٤١ غادر القديس فرنسيس زافير لشبونة على سفينة برتغالية ، وبعد عام من الرحلة والمعاناة بلغ جوا . وهناك أخذ يمشي في الشوارع رائحاً غادياً وهو يقرع ناقوساً يدعو الناس للاستماع إليه . فلما التفوا حوله بسط لهم العقيدة المسيحية بكل إخلاص وبلاغة ، ثم أوضح الخلق المسيحي عملياً بمشاركته في عيشه أفقر المستمعين إليه مشاركة مغتبطة ، حتى استطاع أن يحول إلى المسيحية آلاف الهندوس والمسلمين ، بل إنه أقنع بالإيمان بعض المسيحيين البرتغاليين المغتربين الذين قست الشدائد قلوبهم . ولعل إبراهيم المرضى راجع إلى الثقة التي بثها فيهم أو إلى معرفته العارضة بالطب ، وقد نسبت إليه المعجزات فيما بعد . ولكنه لم يدع لنفسه واحدة منها . أما المرسوم

البابوي الذي سلكه في زمرة القديسين (١٦٢٢) ، فقد نسب إليه « موهبة الألسن » — أي القدرة على التحدث بأي لغة عند الحاجة ، ولكن الحقيقة أن هذا القديس البطل كان لغوياً ضعيفاً ينفق الساعات الطويلة في حفظ المواعظ بالتاملية أو الملاوية أو اليابانية ، وكان إيمانه أحياناً أشد من أن تسايره إنسانيته ، فقد حث يوحنا الثالث ملك البرتغال على إنشاء محكمة للتفتيش في جوا (٤٦)، وأوصى بالألا يرسم للقسوسية أي هندوسى ما لم ينحدر من أجيال عدة من الأسلاف المسيحيين ، ولم يكن يطبق فكرة اعتراف برتغالي لقسيس وطنى (٤٧) . وأخيراً غادر جوا لأنها بلد تتعدد فيه اللغات تعدداً لا يعينه على تحقيق أهدافه . قال « أريد أن أكون حيث لا يوجد مسلمون ولا يهود . أعطوني وثنيين خالصاً » (٤٨) — فلقد أحس أن الوثنيين أطوع إيماناً لأنهم أقل رسوخاً في دين آخر . وفي عام ١٥٤٩ قصد اليابان ، ودرس اليابانية في طريقه إليها . ولما رسا في كاجوشيا ، راح هو وزملاؤه يبشرون في الشوارع والناس يستمعون إليهم في أدب . وبعد عامين عاد إلى جوا ، وقوم خللا ظهر بين المسيحيين هناك ، ثم أبحر ليبشر الصين (١٥٥٢) . وبعد عناء شديد نزل جزيرة تشانج — تشوين ، أسفل مصب نهر كانتون . وكان إمبراطور الصين قد قرر اعتبار دخول أوربي للصين جريمة كبرى ، ومع ذلك ما كان هذا ليثنى عزم زافير لو أنه وجد وسيلة للانتقال . وخلال انتظاره بمرض ، ثم فارق الحياة في ٢ ديسمبر ١٥٥٢ وهو يبكى قائلاً « فيك يا رب رجائى ، فلا تجعلى ملعوناً إلى الأبد (٤٩) » . وكان إذ ذاك في السادسة والأربعين .

وقد تفانى اليسوعيون في عملهم في أوربا تفانيهم في البعثات الأجنبية . فلزموا أماكنهم وعنوا بالمرضى في فترات تفشى الطاعون (٤٨) . وبشرو كل الطبقات ، وكيفوا لغتهم وفق كل موقف . وجعلهم تعليمهم الممتاز وطباعهم المهذبة آباء الاعتراف المفضلين عند النساء والنبلاء ، ثم عند

الملوك . وشاركوا في شئون الدنيا بنشاط ولكن بحكمة ولباقة ، وقد نصحهم إجناتيوس بأن قسطاً أكبر من الحكمة وأقل من التقوى خير من قدر أكبر من التقوى وأقل من الحكمة (٥١) . وكانوا عادة رجالاً على خلق عظيم ، أما الأخطاء التي رموا بها في فترة لاحقة فلم تكد تظهر في العصر الذي نحن بصدده (٥٢) . ومع أنهم وافقوا جماعةً على محكمة التفتيش (٥٣) ، فإنهم وقفوا على مبعده منها ، موثرين أداء رسالتهم عن طريق التعليم . وقد اضطرتهم قلة عددهم إلى ترك تعليم الأطفال لغيرهم ، أما هم فركزوا جهودهم على التعليم الثانوي ، وإذا وجدوا أن الجامعات قد سبقتهم في الهيمنة عليها طرق دينية أخرى أو السلطة الزمنية أو رجال الدين البروتستنت ، فقد نظموا لهم كليات خاصة ، وحاولوا تدريب شبان مثقفين ليكونوا مراكز للتأثير في الجيل التالي . وهكذا أصبحوا أعظم المربين في زمانهم .

لقد أنشأوا في نقط هامة في أوروبا معاهد دنيا - تقابل الجمنازيوم الألماني والليسيه الفرنسية - وكليات عليا . واستطاعوا أحياناً أن يتسلموا جامعات موجودة فعلاً كما حدث في كواميرا ولوفان . وروعوا منافسهم بتعليمهم التلاميذ مجاناً . وأكبر الظن أن منهج الدراسة الذي وضعوه يدين بالفضل للمدارس التي أنشأها في هولنده وألمانيا «إخوان الحياة المشتركة» ، والجمنازيوم شتورم في ستراسبورج ، ولأكاديميات ألمانيا وإيطاليا الإنسانية . وكان هذا المنهج يقوم على الآداب القديمة ويدرس باللاتينية ، أما استعمال اللغة القومية فمحظور على الطلبة إلا في العطلات (٥٤) . وأعيدت دراسة الفلسفة الكلامية في الفرق العليا . وزيد الاهتمام بتربية الخلق - أي الفضائل والعادات - وربط من جديد بين هذه التربية وبين العقيدة الدينية ، وغرس الإيمان التقليدي في التلاميذ ، فأشربهم نظام من الصلاة ، والتأمل ، والاعتراف ، والتناول ، والقديس ، واللاهوت ، سلامة في العقيدة قل معها من انحرف منهم في القرن السادس عشر عن هذا السبيل

المطروق . وردت الدراسات الإنسانية من الوثنية إلى المسيحية . على أن هذا النظام كانت فيه مأخذ خطيرة ، فهو مفرط في الاعتماد على الذاكرة ، مشبط للأصالة ، ناقص في العلوم كغيره من مناهج ذلك العهد ، وقد نقى التاريخ تحقيقاً للهيمنة على الحاضر . ومع ذلك فإننا نجد مفكراً ذا نزعة استقلالية قوية مثل فرانسس بيكن يبادر إلى القول في مدارس اليسوعيين ، « وددت لو كانت هذه المدارس مدارسنا ولو بوضعها الراهن » (٥٥) . وسرى في القرنين التاليين أن خريجها سيرزون في كل مناحي الحياة تقريباً عدا البحث العلمي .

وقبيل وفاة لويولا كان هناك مائة كلية يسوعية . وبفضل التعليم والدبلوماسية والتفاني في العمل ، وبفضل الحماسة التي يضبطها النظام ، وبفضل التنسيق بين الأهداف والتوزيع البارع في الوسائل ، أفلح الجزويت في صد المد البروتستنتي ، واستردوا للكنيسة جانباً كبيراً من ألمانيا ، ومعظم المجر وبوهيميا ، وكل بولنده المسيحية . وندر أن حققت جماعة بمثل هذا الحجم الصغير ، مثل هذا النجاح الكبير ، بمثل هذه السرعة الفائقة . ومضت سمعتها ونفوذها ينموان العام بعد العام ، إلى أن اعترف بعد عشرين عاماً من تأسيسها الرسمي بأنها أروع نتاج للإصلاح الكاثوليكي . ويوم اجترأت الكنيسة في نهاية المطاف على دعوة ذلك المجمع العام الذي طال ارتقاب أوروبا له ليهدىء صراعها اللاهوتي ويبرى جراحها الدينية ، كانت حفنة من الجزويت — بثقافتهم ، وولاتهم ، وحصافتهم ، وسعة حيلتهم ، وبلاغتهم — هي التي ناط بها البوابات مهمة الدفاع عن سلطتهم المتحداه ، والمحافظة على الإيمان القديم كاملاً غير منقوص .